الخزي اللامع

رسالة من عاصم عبد الماجد

إلى شباب الصحوة الإسلامية

عاصم عبد الماجد أحد رموز الجماعة الإسلامية وقادتها الفكريين حيث أثرى مع إخوانه -بتوفيق الله تعالى- بقلمه السيال وأسلوبه الأخاذ أبحاث ودراسات الجماعة الإسلامية العديدة، وهو يقضي الآن حكم المؤبد في قضية اغتيال السادات فك الله أسره وجميع إخوانه.

وكان قد كتب هذه السطور منذ عدة سنوات أثناء ترحيله من سجن "ليمان طرة" جنوب القاهرة إلى سجن "أسيوط" بصعيد مصر لأداء امتحان نهائي كلية الهندسة، والذي كما قال تأخر كثيرا. والذي لم يذكره عاصم عبد الماجد عن نفسه في هذه السطور أنه كان من الحاصلين في يوم من الأيام على وسام الطالب المثالي على مستوى جامعة أسيوط، وأنه كان من المتفوقين دراسياً.

ولما في هذه السطور من فائدة وخير فقد رأينا نشرها عساها تعيد شارداً وترد آبقاً ..والله الموفق.

كنت قد عزمت أن تكون هذه الصفحات مجرد خاتمة لمشروع. ثم بدا أن تكون محاولة وصل لما انقطع من حوار كان متصلاً يوماً ما بيني وبين إخواني الطلاب.

فلقد كان من ثمرة هذا الحوار أجيال عظيمة رأيتها بعيني رأسي تقفز فوق كل التحديات كي تصل إلى ما تريده .. واليوم أحاول أن أعود ثانية إلى هذا الحوار الذي أرجو أن يكون هذه المرة متصلاً دونما انقطاع .

اليوم وأنا أقدم مشروع التخرج من كلية الهندسة أشعر أن هناك ما لا بد من أن أقوله ختاماً لهذه الرحلة التي قد طالت كثيراً عما كنت أخطط لها . لقد اخترت هذه الكلية ورغبت عما سواها –مما يعده الناس أفضل منها منزلة وأعلى مكانة- مخالفاً بذلك رغبة كل من حولي، لأني كنت أشعر آنذاك أن هذه الكلية دون غيرها هي التي تلائم طبيعة تكويني، وهي التي أجد فيها ذاتي وأستطيع من خلالها تحقيق طموحاتي. كنت على قناعة كبيرة –لا يكاد يخالجها شك- أني سأقدم في هذا المجال شيئاً جديداً هاماً، بل أشياء كثيرة، وأني سأخدم هذا الوطن خدمات قد لا يتيسر لغيري تقديمها. هكذا كنت عندما أتيت هنا أول مرة . لكن حدث ما لم يكن في الحسبان. ففي منتصف الرحلة التعليمية حدث تغير جوهري في مسيرة حياتي كلها ، وانقشعت غمامات كثيفة كانت تحجب عيني .. بل تحجب قلبي عن الرؤية.. توقفت عاماً دراسياً كاملاً ألتمس الطريق .. الأمر الذي أغضب زملائي وأساتذتي، حتى أن أحدهم أحرجني بسؤال في مجلس تأديب –هو أحد ثلاثة مجالس تأديب تشرفت بها- سألني عن سر توقفي فأجبته بأني اكتشفت أني أسير على غير هدي، فتوقفت لأتبين مواقع أقدامي . ويبدو أن هذه الإجابة لم تلق قبولاً يومها .. يبدو أنهم يريدون منا أن نسير كيفما اتفق، دون أن نحدد اتجاه سيرنا، ودون أن يكون لنا هدف. وهذا ما نرفضه ..

يراد لجامعاتنا اليوم أن تخرج أجيالاً لا تستطيع أن تقول : لا .. ترى الانحراف من قمة رأس المجتمع إلى قاعه ولا تقول: لا..
أجيال تجبر على تقبل الانحراف والفساد .. تجبر على معايشته .. تجبر على الانحناء لحراس هذا الانحراف .. تجبر على أن تبتلع هويتها الإسلامية وتكتمها مخافة أن يظهر شئ من ذلك على تصرفاتها.
فالحرس الجامعي ومباحث أمن الدولة بالمرصاد .. وإذا اعترض معترض وقال: دعوا لنا حريتنا . قيل له أنت هنا للعلم والعلم فقط. ولو صدقوا لقالوا: أنت هنا للقهر والذل والتدريب على خلع هويتك ظاهراً وباطناً عبر منظومة كاملة من الوسائل الشيطانية التي اقتحمت الجامعة اقتحاماً، بدءاً من حفلة راقصة واختلاط وسفور وانتهاءً برصاصات الداخلية التي أعلن وزيرها عن تسديدها في عين سويداء القلب، ومروراً بالأشاوس المغاوير الشجعان الواقفين على الأبواب يطردون المنتقبات ويكشرون في وجه المحجبات ويبتسمون للمتبرجات السافرات ..!! فأي جيل هذا الذي يتم صناعته في جامعاتنا؟.. وأي شئ يرجى من ورائه ؟..
لا . لست ألتمس عذراً لهذا الجيل إن هو ركع واستكان؛ فكثيرون قد رفضوا الركوع، وكثيرون افترشوا أرض المعتقلات وداروا في ساحات التعذيب ليحفظوا هويتهم وعقيدتهم .والمطلوب من كل أحد أن يرتفع لهذه القمة.

نعم لست ألتمس عذراً لمن خضع ولكني أسجل بعض الممارسات الشهيرة في جامعات اليوم والتي وضع لها هدف خبيث لا تألوا جهداً في العمل لتحقيقه. فهل بوسع الجامعات –وهذا حالها- أن تقدم شيئاً لأمتها ؟.. إن التعليم لا تكون له قيمة إذا لم يكن يخدم هدفاً سامياً يتم توجيه الجهود العلمية لتحقيقه، كما يتم صياغة شخوص المتعلمين كي لا ينحرفوا عن الهدف السامي، وكي تقدر على تحمل تبعات تحقيقه. فهل هذا متحقق عندنا ؟

سؤال يجب أن نجيب عنه قبل أن ندفن رؤوسنا في كتب الدراسة ومراجع البحث .. لست أدعو إلى ترك التعليم بحجة أن المؤسسات التعليمية بلا هدف أو لها هدف رديء، ولكنني أدعو إلى إعادة صياغة المجتمع كله صياغة إسلامية صحيحة فينعكس هذا بدوره على مجال التعليم كما ينعكس على غيره من المجالات.

هذه هي المهمة الأولى، وهي أهم من تحقيق تفوق في هذا العلم أو اكتشاف في ذاك المجال؛ لأن هذا التفوق وذاك الاكتشاف إما سيتم دفنه أو استخدامه في خدمة غرض غير صحيح.

فلابد أولاً من إيجاد تربة صالحة إذا بذرنا فيها علوم العلماء آتت ثمرتها المرجوة. وقد قال تعالى: " والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً " فلابد قبل أن تبذر ما معك أن توجد أولاً الأرض الصالحة لأنك إن صادفت أرضاً غير طيبة لم تخرج لك إلا نباتاً سيئاً ضعيفاً معيباً.

وإلى أن يتحقق هدف صياغة المجتمع ومؤسساته من جديد ووفق المنهج الإسلامي يكون العلم مطلوباً لأحد غرضين:

1-خدمة المد الإسلامي الصاعد والذي تدفع به الحركة الإسلامية إلى الأمام .

2- الاستعداد لبناء حضارتنا بعد استرداد لإرادتنا وإعادة الإسلام إلى مجتمعاتنا حاكماً ومهيمناً. ففي هذه اللحظة سيكون لعلومنا قيمتها، وسيكون لمؤسساتنا التعليمية دورها بعد أن صار لها عقيدة ومنهج وفلسفة واضحة وصحيحة.

وفيما عدا هذين الغرضين لا أرى للتعليم في بلادنا اليوم هدفاً أو قيمة. فإني أرفض بشدة أن يكون هدف المتعلمين مجرد تحصيل علوم يتشدقون بها أو نيل درجات علمية يتباهون بها أو وظيفة للاسترزاق فهذه كلها أهداف ضعيفة بل رديئة..

كما أرفض أن يكون التعليم بهدف صناعة رقي وتقدم الدول العلمانية التي نحيا في ظلها الآن .. ليس لأنها ستستغل هذا التقدم والرقي استغلالاً خاطئاً، بل لأنها ستعجز عنه ابتداءً طالما أنها تحاول صناعته بمعزل عن الإسلام .. إسلام المجتمع كله واستسلامه لله حكماً وتشريعاً وأخلاقاً وعبادات وعقيدة.. وليس الاحتفالات والموالد وفتاوى تحليل الربا وتحريم النقاب ..!!

تسألني: لماذا ستعجز مجتمعاتنا عن صنع تقدمها المادي بمعزل عن الإسلام رغم أن الغرب نجح في ذلك ؟

أقول لسببين اثنين :

الأول : يتلخص في أن شعوبنا يكاد يستحيل شحذ همتها وإيقاظ عزيمتها بمنهج غير منهج الإسلام .. لن تستجيب شعوبنا ولن تتفاعل مع أي فكرة أو مذهب آخر ؛ فطبيعتها وتركيبتها النفسية وتاريخها .. كل ذلك يمنعها من أن تستيقظ على غير نداء الإسلام.

فإذا خاطبتها بلسان آخر وحاولت صياغتها بمنهج آخر، تركتك وراحت في سبات عميق. فهل يصنع النائمون حضارة ؟! وهاهي في ذلك تخالف شعوب العالم كله شرقه وغربه التي بشرنا العلمانيون بالنهضة خلف مناهجهم فصدقناهم فما زادتنا إلا ضياعاً نتخبط فيه منذ قرنين من الزمان.

الثاني: هو أن المذهب الذي اتبعه الغرب وصنع به تقدمه وقوته في الجانب المادي .. هذا المذهب لا يصلح لتحقيق تقدم شعوب العالم كله ؛ فهو أضيق من ذلك كثيراً بل إنه لا يصلح إلا لتحقيق تقدم القلة على حساب الكثرة، فهو يقوم على الاستنزاف والاستغلال الذي يصل إلى حد تجويع الكثرة ومص دمائها وإبادتها –إن لزم الأمر- لضمان استمرار دوران عجلة الرقي المادي هناك في النصف الشمالي أو على الأصح في الربع الشمالي الغربي من الكرة الأرضية .

لقد تم الاستنزاف داخل المجتمعات الغربية ذاتها ، فداست عجلة الثورة الصناعية عشرات الملايين من العمال المعدمين هناك حتى يحدث تراكم رأس المال اللازم لتحقيق الاستثمار –حسب المفهوم الغربي- وبعد ذلك تم حل هذا التناقض الصارخ على حساب بقية شعوب العالم وبلدانه التي صارت ليست أكثر من مصدر للمادة الخام والأيدي العاملة وسوق لمنتجات الغرب، وتم تحقيق هذا عبر حملات استعمارية شرسة استعبدت شعوب الأرض كلها، فلما رحلت جيوشهم تركت وراءها الأذناب والعملاء الذين يضمنون لها استمرار تبعية دول العالم الثالث، واستمرار استنزافها لأجل تحقيق رفاهية مبالغ فيها للرجل الأوربي والأمريكي .

إنه لوهم عريض أن تحاول اليوم تحقيق نهضة حضارية –ولو في جانبها المادي فقط- بالسير على درب الغرب؛ فالطريق ضيق لا يسعنا وإياهم . بل قد وسعهم فقط، والمنهج ظالم يقضي بإفناء الكثرة من أجل القلة.

وبالتالي صار تقدمنا مرتهناً بتخلصنا من كل تبعية فكرية أو مادية للغرب الذي يبيع لنا وهم التقدم وأحلامه بينما يسرق منا كل مقوماته.

فهل من منهج غير الإسلام قادر على تحطيم التبعية ؟ وهل من منهج غير الإسلام قادر على صياغة جيل يتحمل تبعات هذا التحدي العظيم ؟..

هل من منصف يجيبني ؟

عندما قدمت هنا لأول مرة كنت بلا هوية ومن ثم فقد رحبت بي .
واليوم لأنه يُراد للجامعة أن تكون حرباً على الإسلام أجدها قد ضاقت بي، وأن كل شئ فيها يناديني : ليتك ترحل ..
أرى هذا النداء في وجه كثيرين بدء من طوابير الحرس الجامعي التي احتلت مؤسساتنا العلمية محاولة إثبات أن اليد الطولى لها، وانتهاءً بالعامل المسكين الذي ينتفض خوفاً من فوهات البنادق التي تقتحم عليه طرقات الجامعة ومدرجاتها ومعاملها.
نعم لابد من الرحيل بعد صحبة طالت كثيراً عما هو مفترض لها .
واعترف إنني لم أحقق حلمي الذي من أجله أتيت.. لم أستطع أن أقدم شيئاً في مجال الهندسة الميكانيكية –وهي تخصصي- لهذا الوطن، لأني عندما انزاحت الغمامة عن عيني وقلبي اكتشفت أن البناء لا يعلوا قط عن سطح الماء.
ورأيت وطني مسلوب الإرادة تتلاطمه الأمواج: " يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور" ومهمتنا هي أن ننقذه ..أن نسحبه إلى شاطئ الإسلام أولاً وهناك نستطيع أن نتعاون –كل في تخصصه- ونبني لهذا الوطن حضارته فيرتفع البناء.

عزائي أني شاهدت في هذه الجامعة أفواجاً بعد أفواج من أصحاب العزائم والبصائر الذين انطلقوا لا يبالون بسجون ولا تعذيب ولا رصاص ليمدوا يدهم لأمتهم لإقالتها من عثرتها وإنقاذها من الغرق.. يفعلون ذلك لوجه الله وامتثالاً لأمره ..

وفي كل ركن من أركان الجامعة لي مع هؤلاء ذكرى.. في مساجدها الصغيرة .. وطرقاتها وساحاتها وفي قاعات الدرس .. وفي مدينتها السكنية التي كانت جميلة.. بل حتى عندما سجنت كنت معهم ..

ويوماً ما ستفخر جامعتنا إنها عاصرت هؤلاء وستعتذر لأنها أجبرت إجباراً على أن تحارب فلذات أكبادها وصناع مجد أمتها القريب، واضطهدتهم لا لشيء إلا لأنهم اكتشفوا خدعة الخرز اللامع ..!!

هل تدري ما خدعة الخرز اللامع ؟..

هي قصة قرأناها أيام صبانا وما وعيناها إلا بعد ذلك بسنيين .. قصة الرجل الأوربي الأبيض عندما هبط إلى القارة السوداء، فلما رآه صاحب الأرض توجس منه خيفة وهرب من أمامه .. فناداه الرجل الأبيض فلم يجبه، فأخرج من جيبه عقداً من الخرز اللامع .. تتلألأ حبات الخرز تحت ضوء القمر فانبهر صاحب الأرض وتقدم وتناولها من يده وراح يقلبها.. ابتسم الرجل الأبيض وربت على كتفه وأخبره أنها من معدن نفيس ثم أشار أن اتبعني .

مضى صاحب الأرض خلفه وهو يمني نفسه بكنوز كثيرة سيجنيها من وراء هذا السيد طيب القلب كريم اليد. وعند الشاطئ صعدا إلى السفينة معاً، وفجأة انقض عليه السيد الأبيض وأوثقه بالأغلال ورماه في قاع السفينة بجوار مئات من أمثاله وبيد كل منهم عقد من خرز لامع ..!!

وأبحرت السفينة، وعندما وصلت إلى شاطئ بلاد الأسياد فوجئ السود بأنهم صاروا عبيداً .. حزنوا كثيراً .. وحزنوا أكثر عندما اكتشفوا أن ما معهم ليس معدناً نفيساً بل هي حبات رديئة من خرز لامع ..

هذه هي قصتنا مع الغرب الذي خدعنا بزخرف حضارة زائفة فتركنا ديننا وشرعنا ومضينا خلفه، فوضع الأغلال على أعناقنا واستعبدنا.. عشنا في العبودية سنين طويلة نمني أنفسنا بأن ما أعطاه الغرب لنا خير مما تركناه، وأننا بصدد حضارة عظيمة، ثم اكتشفنا أنها حبات رديئة من خرز لامع ..!!

كانت جريمتنا نحن أننا اكتشفنا الخدعة، وأننا تجرأنا وألقينا حبات الخرز اللامع في وجه الغرب القبيح وعدنا نبحث عن كنوزنا .. خفنا أن تكون قد ضاعت .. كم كانت فرحتنا عندما وجدناها وقد كتب على غلافها : " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ."

أزلنا التراب عنها .. فتحناها .. بدأنا نقرأ ونرتل ..

في البداية تلعثمنا، فقد هجرنا التلاوة زمناً طويلاً ..

لكن سرعان ما استقامت ألسنتنا .. ومضينا نرتل .. ودموعنا تسيل ندماً على عمر قد ضاع بعيداً عن إسلامنا .

لقد تم الاستنزاف داخل المجتمعات الغربية ذاتها ، فداست عجلة الثورة الصناعية عشرات الملايين من العمال المعدمين هناك حتى يحدث تراكم رأس المال اللازم لتحقيق الاستثمار –حسب المفهوم الغربي- وبعد ذلك تم حل هذا التناقض الصارخ على حساب بقية شعوب العالم وبلدانه التي صارت ليست أكثر من مصدر للمادة الخام والأيدي العاملة وسوق لمنتجات الغرب، وتم تحقيق هذا عبر حملات استعمارية شرسة استعبدت شعوب الأرض كلها، فلما رحلت جيوشهم تركت وراءها الأذناب والعملاء الذين يضمنون لها استمرار تبعية دول العالم الثالث، واستمرار استنزافها لأجل تحقيق رفاهية مبالغ فيها للرجل الأوربي والأمريكي .

إنه لوهم عريض أن تحاول اليوم تحقيق نهضة حضارية –ولو في جانبها المادي فقط- بالسير على درب الغرب؛ فالطريق ضيق لا يسعنا وإياهم . بل قد وسعهم فقط، والمنهج ظالم يقضي بإفناء الكثرة من أجل القلة.

وبالتالي صار تقدمنا مرتهناً بتخلصنا من كل تبعية فكرية أو مادية للغرب الذي يبيع لنا وهم التقدم وأحلامه بينما يسرق منا كل مقوماته.

فهل من منهج غير الإسلام قادر على تحطيم التبعية ؟ وهل من منهج غير الإسلام قادر على صياغة جيل يتحمل تبعات هذا التحدي العظيم ؟..

هل من منصف يجيبني ؟